٦ - دعابة الجاحظ

للأديب محمد فهمى عبد اللطيف

... وإنى لأعجب للجاحظ كيف اتسع وقته واتسع قلبه لكل هذا الضحك والأضحاك من الناس ، فكأنه كان رقيباً يرقبهم فى كل ناحية من نواحى نقصهم ، ليعود من وراء ذلك بالنادرة الطيبة ، ويفوز بالفكاهة الضاحكة ، وينثنى بالملحة البارعة ، فهو يتسقط جهد طاقته — حيلة المتطفل ، وحجة البخيل ، ونحلة الأكول ، وخفة الأبله ، وسخافة الغبى ، وغباوة الأحمق ، ووقاحة الدعى ، وتقعر المتعالم ، وعنجهية الأعرابى ، وملحة الأديب ، وظرف النديم ، فاذا ما أجرى ذلك وأشباهه على لسانه ، أو تناوله بقلمه ، وأخرجه على طريقته ، وطبعه بأسلوبه ، وأفرغ عليه من روحه وقلبه ، فانه لاشك يستولى على لبك ، ويهيج نشاطك ، ويدفعك إلى الضحك دفعاً ، وينتقل بك إلى روضة أريضة بالبشر والطلاقة ، والشواهد لذلك كثيرة فى كتب الرجل وفيما تلقفه عنه الأدباء وأهل الرواية . حدث فيما حدث به عن بخل محمد بن أبى المؤمل وشدة حرصه وإقتاره فقال : واشترى — أى ابن أبى المؤمل — مرة شبوطة[1] وهو ببغداد ، وأخذها فائقة عظيمة وغالى بها وارتفع فى ثمنها ، وكان قد بعد عهده بأكل السمك وهو بصرى لا يصبر عنه ، فكان قد أكبر أمر هذه السمكة لكثرة ثمنها ولسمنها وعظمها ، ولشدة شهوته لها ، فحين ظن عند نفسه أنه قد خلا بها ، وتفرد بأطايبها ، وحسر عن ذراعيه ، وصمد صمدها ، هجمت عليه ومعى السدرى ، فلما رآه رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف ، ورأى الحتم المقضى ، ورأى قاصمة الظهر وأيقن بالشر ، وعلم أنه قد ابتلى بالتنين ، فلم يُلبثه السدرى حتى فور السرة بالمبال ، فأقبل على فقال لى يا أبا عثمان : السدرى يعجبه السدر ! فما فصلت الكلمة من فيه حتى قبض على القفا فانتزع الجانبين جميعاً ، فأقبل علىّ فقال : والسدرى يعجبه الأقفاء ، فما فرغ من كلامه إلا والسدرى قد اجترف المتن كله ! فقال يا أبا عثمان : والسدرى يعجبه المتون ! ولم يظن أن السدرى يعرف فضيلة ذنب الشبوط وعذوبة لحمه ، وظن أنه سيسلم له ، وظن معرفة ذلك من الغامض ، فلم يدر إلا والسدرى قد اكتسح ما على الوجهين جميعاً ! ! ولولا أن السدرى أبطره وأثقله وأكمده وملأ صدره غيظا لقد كان أدرك معه طرفاً لأنه كان من الأكلة ، ولكن الغيظ كان من أعوان السدرى عليه ، فلما أكل السدرى جميع أطايبها وبقى هو فى النظارة ، ولم يبق فى يده مما كان يؤمله فى تلك السمكة إلا الغيظ الشديد والغرم الثقيل ظن أن فى سائر السمكة مايشبعه ويشفى من قرمه ، فبذلك كان عزاؤه وذلك هو الذى كان يمسك بأرماقه وحشاشات نفسه ؛ فلما رأى السدرى يضرى القرى ويلتهم التهاماً قال : يا أبا عثمان السدرى يعجبه كل شىء ، فتولد الغيظ فى جوفه ، وأقلقته الرعدة فخبثت نفسه ، فما زال يقىء ويسلح ثم ركبته الحمى وصحت توبته وتم عزمه فى ألا يؤاكل رغيباً أبداً ولا زهيداً ، ولا يشترى سمكة أبداً رخيصة ولا غالية ، وإن أهدوها إليه لا يقبلها ، وإن وجدها مطروحة لا يمسها[1]

فالجاحظ فى هذه النادرة البارعة يحاول أن يدخل على نفسك من كل جهة ، وأن يهز قلبك بالضحك فى تهويله وإغراقه ، فهو يبسط لك فى العبارة ، ويرادف الجمل على المعنى الواحد فاذا به يبهرك بصور معروضة لا بألفاظ مسرودة . وخذ بالنظر الى هذه النادرة التى بين أيدينا ، فأنت فى ضحك بالغ من اغراق الجاحظ فى تصوير بخل ابن أبى المؤمل حتى أنه لما رأى السدرى « رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف ! ورأى الحتم المقضى ! ورأى قاصمة الظهر ! وأيقن بالشر ! وعلم أنه قد ابتلى بالتنين ! ! وأنت أيضاً فى ضحك بالغ من نهاية هذا الرجل تلك النهاية الأليمة : اذ « تولد الغيظ فى جوفه ، وأقلقته الرعدة ، فخبثت نفسه فما زال يقىء ويسلح ! ! ثم ركبته الحمى ! ! وصحت توبته وتم عزمه فى أن لا يؤاكل رغيباً ولا زهيداً ، ولا يشترى سمكة أبداً رخيصة ولا غالية ، وإن أهدوها اليه لا يقبلها ، وإن وجدها مطروحة لا يمسها ! ! » ثم أنت فى ضحك من صنيع السدرى وهو يقور السرة ، ويقبض على القفا ، ويجترف المتن ، ويكتسح ما على

(١) الشبوط نوع من السمك دقيق الذنب عريض الوسط لين المس تحدث عنه الجاحظ فى كتابه الحيوان وهو كثير فى دجلة .

(١) البخلاء ص ٨٣

الوجهين جميعا ، ثم وهو يفرى الفرى ويلتهم التهاما !! ولقد كان السدرى من الآكلة ، وهو من الأشخاص الذين أولع الجاحظ بالتنادر عليهم ، وأغرق فى الضحك منهم ، ومع ذلك فكان يجالسه ويحادثه ويجاذبه الرأى والفكاهة ، فقال له يوماً : اذا كانت المرأة عاقلة ظريفة كاملة كانت قحبة ! فقال السدرى : وكيف ؟ قال : لأنها تأخذ الدراهم ، وتتمتع باللباس والطيب ، وتختار على عينها من تريد ، والتوبة معروضة لها متى شاءت ! فقال السدرى : فكيف عقل العجوز ؟ قال : هى أحمق الناس وأقلهم عقلا !!

على أن السدرى وهو على ما رأيت فى الشره والجشع لم يكن فى الآكلة بسباق الحلبة ولا هو بكبش الكتيبة فى رأى الجاحظ وتقديره ، وانما كان يقدم فى ذلك قاسما التمار ، وكان قاسم هذا - كما يقول الجاحظ - شديد الأكل شديد الخبط قذر المؤاكلة ، وكان أسخى الناس على طعام غيره وأبخل الناس على طعام نفسه ؛ وكان فى مؤاكلته يعمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة ولا بالتجمل قط . وكان يجلس على طعام ثمامة بن أشرس فكان لا يرضى بسوء ادبه حتى يجر معه ابنه ابراهيم ، وكان بينه وبين ابنه فى القذر بقدر ما بينه وبين جميع العالمين ، فكانا اذا تقابلا على خوان ثمامة لم يكن لأحد على ايمانهما وشمائلهما حظ فى الطيبات [1] ، وكان قاسم الى جانب ذلك سخيفاً مغفلا غبياً ، وقد حفل الجاحظ بأخباره ونوادره فأورد بعضاً من حوادثه فى الهجوم على خوان ثمامة وفتكه به فى كتاب البخلاء [2] ، كما اورد طرفاً من سخافاته وحماقاته فى البيان والتبيين [3] ، وما أطيبه وهو يضحك من جهله اذ يقول فى باب اللحن : وقال بشر المريسى : قضى الله لكم الحوائج على أحسن الوجوه وأهنؤها ! فقال قاسم التمار : هذا على حد قوله :

إن سليمي والله يكلؤها ضنت بشيء ما كان يرزؤها

قال الجاحظ : فصار احتجاج قاسم أطيب وأضحك من لحن بشر !! [4] ، ولولا التحرج لأوردنا شيئا من نوادر الرجل ومضاحيكه التى أحصاها الجاحظ عنه ، فان فيها مايعف القلم عن ذكره ، ولا يصح أن ينشر مطويه فى مجلة سائرة ! على أنها طبية تفيض بالضحك وتحمل عليه !!

والجاحظ ولوع ببعض الأشخاص يتعقب أخبارهم فى الضحك والعبث ، ويذكرهم بأوصافهم فى كل مناسبة داعية ، فكما أنه يتندر على الكندى وابن أبى المؤمل وسهل فى البخلاء ، والسدرى وقاسم التمار فى الآكلة ، فهو يذكر كثيراً كيسان مستملى أبى عبيدة فى أهل البلادة ، ولقمان المعرور فى أصحاب الغباوة ، وريسموس اليونانى فى الموسوسين ، وأبو حية النميرى فى المجانين ، وريطة بنت كعب فى الخرق ، ومالك بن زيد مناة فى النوكى ، وابن فنان فى المدخولين . وإنه ليطربك ويضحكك وهو يضحك من مستملى أبى عبيدة فى غفلته وبلادته ، قال الجاحظ : فكان يكتب غير ما يسمع ، ويقول غير ما يكتب ، ويستملى غير ما يقرأ ، ويملى غير ما يستملى . أمليت عليه يوماً :

قلت لمعشر عدلوا بمعتمر أبا عمرو !

فكتب أبا بشر ، وقرأ أبا حفص ، واستملى أبا زيد ، وأملى أبا نصر [1] ! قلت وإذا كان فى هذا الوصف ما يحمل على الضحك ، فليس يبالغ من ذلك ما يبلغه وصف الجاحظ أيضا لغباوة أبى لقمان المعرور إذ يقول : وسأل بعض أصحابنا أبا لقمان المعرور عن الجزء الذى لا يتجزأ ما هو ؟ فقال : الجزء الذى لا يتجزأ على ابن أبى طالب عليه السلام ، فقال له أبو العيناء : أفليس فى الأرض جزء لا يتجزأ غيره ؟ قال : بلى ! حمزة جزء لا يتجزأ ! قال فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ قال أبو بكر يتجزأ ! قال : فما تقول فى عثمان ؟ قال : يتجزأ مرتين ، والزبير يتجزأ مرتين ، قال : فأى شيء تقول فى معاوية ؟ قال : لا يتجزأ !! قال الجاحظ : فقد فكرنا فى تأويل أبى لقمان حين جعل الأنام أجزاء لا تتجزأ إلى أى شيء ذهب ؟ فلم نقع عليه إلا أن يكون أبو لقمان كان إذا سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذى لا يتجزأ هاله ذلك وكبر فى صدره وتوهم أنه الباب الأكبر من علم الفلسفة !! وأن الشيء إذا عظم خطره سموه بالجزء الذى لا يتجزأ !! » [2]

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر كما يقولون ، فما أشبه أبا لقمان فى غفلته وجهله بعبيد الكلابى . وقد سأله الجاحظ : أيسرك أن تكون هجيناً ولك ألف دينار ؟ فقال : لا أحب اللؤم بشيء !

(١) البخلاء ص ١٦٧ (٢) ص ١٦٦ ، ١٦٧
(٣) ص ٢١٨ ج ٣ (٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٤٧

(١) جمع الجواهر للمصرى ص ٣٠٢
(٢) الحيوان للجاحظ

قال الجاحظ : فقلت له : إن أمير المؤمنين ابن أمَة [1] ! فقال : أخزى الله من أطاعه ، فقلت : نبي الله إسماعيل ابن أمة ! فقال : لا يقول هذا إلا قَدَرى ! فقلت : وما القدرى ؟ فقال : لا أدرى إلا أنه رجل سوء ! !

وللجاحظ كثير من المضاحيك السائرة والنوادر الذائعة التى نقلها عنه الرواة ؛ فمن ذلك ما رواه أبو بكر بن إسحاق قال : قال لى إبراهيم بن محمود ونحن ببغداد : ألا تدخل على الجاحظ ؟ فقلت مالى وله ! فقال : إنك إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه فلو دخلت إليه وسمعت كلامه ؟ فدخلت عليه فقدم لنا طبقاً من الرطب فتناولت منه ثلاث رطبات وأمسكت ، ومرّ فيه إبراهيم فاشرت إليه أن يمسك ! فرمقنى الجاحظ فقال لى : دعه يا فتى فقد كان عندى بعض إخوانى فقدمت إليه الرطب فامتنع فحلفت عليه فأبى ألا أن يبرّ قسمى بثلثمائة رطبة ! !

وقال أبو العيناء : كان الجاحظ يأكل مع محمد بن عبد الملك الزيات فجاؤا بفالوذجة [2] فتولع محمد بالجاحظ وأمر أن يجعل من جهته مارق من الجام ، فأسرع فى الأكل فتنظف ما بين يديه ! ! فقال ابن الزيات : تقشعت سماؤك قبل سماء الناس يا أبا عثمان ؟ فقال الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقا ! !

وأدعى إلى الضحك من هذا ما حدث به الجاحظ فقال : كان يحضر الىّ رجل فصيح من العجم فقلت له : هذه الفصاحة وهذا البيان لو ادعيت فى قبيلة من العرب لكنت لا تنازع فيها ، فما جابنى إلى ذلك ! فجعلت أحفظه نسباً حتى حفظه وهذّه هذّاً ، فقلت له : الآن لاتته علينا ! فقال : سبحان الله ان فعلت ذلك فأنا اذاً دعي ! !

وشبيه بهذا الأعجمى المتفاصح ذلك القاص المتعالم الذى أشار اليه الجاحظ فقال : وكان عندنا قاص أعمى ليس يحفظ من الدنيا الا حديث جرجيس ، فلما أخذفيه بكى واحد من النظارة فقال القاص : أنتم بأى شىء تبكون ؟ ! انما البلاء علينا معاشر العلماء ! !

فالجاحظ لاشك كان رجلا ضُحَكة ضُحَكة ، ومضاحيكه كما قلنا ـ تمثلك اللب ، وتهتاج النشاط ، وتدفع الى الضحك دفعا ...

« له بقية » محمد فهمى عبد اللطيف

(١) يريد به الخليفه المعتصم إذ كانت أمه جارية

(٢) حلوا تعمل من الدقيق والماء والعسل وكأنها المعروفة الآن بالبالوذه

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسى ألفونس كار

ترجمة ف . ف

زهرة مقصوفة

ترطّبت أهدابى بدموع الفجر ، ففتحتُ عينى لأوائل أشعة الشمس .

مرت بى عند الصباح غادة استوقفها جمالى فحدجتنى بنظرات الاعجاب فابتسمت لها

وأمرت الغادة يدها الناعمة على وريقاتى فارتعشت ، وأسكرتنى اللذة ، لكنها لم تطل حتى شعرت بعدها بألم هائل اخترق أحشائى ، فأحنيت الرأس ذليلة على غصنى المقصوف

* * *

لِم لَم تقطفنى تويجى ، أيتها الغادة ، لماذا قصفت غصنى فتركتنى بين الحياة والموت ، وقد كان فى إمكانك أن توسدينى نهدك فأرقد عليه بسلام .

إن دمى يسيل ببطء من جرحى المفتوح ، وصقيع الموت يلوّح وريقاتى بالاصفرار . وقد انطبق تويجى منقبضاً على أوجاعه

أتوقف النسيم عن مداعبة الأغصان ؟ إننى لم أعد أسمع لأجنحته عليها حفيفاً . وهل صمتت الأطيار ؟ فقد انقطع عن مسمعى تغريدها .

أين شعاع الشمس ؟ إننى لم أعد أراه . ويلاه ! أخبرننى ، أيتها الرفيقات ، هل تلاشى النور وساد الظلام ؟ .

* * *

لا ، إن الليل لم ينشر أجنحته بعد ، ولكنها أشباح الموت السوداء تنطبق على ، فسوف لا أرى لمعان النجوم فى قبة الفضاء ولا أفتح وريقاتى لاقتبال ندى الفجر

ستتساقط بقاياى مبددة على التراب وترتفع روحى إلى الأعالى تاركة أريجى عالقاً بالأثير .

سوف ينتصب شبحى المتألم بوجهك ، أيتها الغادة ، سوف يثأر لى ضميرك منك ، فتأثمين لقسوتك على وإهمالك للضحية البريئة .

* * *

غفر الله لك ، ووقاك من يد تغشاك بالأمل لتتركك فريسة الإهمال . أبعد الله عنك آلام الزهرة المقصوفة ! أيتها الفتاة !